البناء السردي والدلالي في رواية (مثل ايكاروس) للكاتب احمد خالد توفيق

The narrative and semantic structure in the novel (Like Icarus) by the writer Ahmed Khaled Tawfik

سماح علي جبار عباس
مديرية التربية العامة –كربلاء المقدسة
Samah Ali Jabbar Abbas
General Directorate of Education –Holy Karbala
samah.a@s.uokerbala.edu.iq
07762821672
أ.م.د. حنان منصور عباس
جامعة كربلاء / كلية العلوم الاسلامية
Assistant Professor Dr. Hanan Mansour Abbas
University of Karbala / College of Islamic Sciences
hanan.mensour@uokerbala.edu.iq

الكلمات المفتاحية : مثل ايكاروس– السردية السيميائية – العوامل السردية – البرنامج السردي– المربع السيميائي

Keywords: such as Icarus – semiotic narrative – narrative factors – narrative program – semiotic square

الملخص :

حاول البحث الكشف عن البنية السردية والدلالية في رواية «مثل إيكاروس» للروائي المصري أحمد خالد توفيق عبر توظيف اليات المنهج السيميائي السردي الذي اجترحه غريماس والذي يتيح الانتقال من البنية السطحية للأحداث والشخصيات إلى البنية العميقة المنتجة للمعنى. ولتشعب المصطلحات وترجماتها وكثرة الادوات التحليلية التي قدمها غريماس في مقالاته المتعددة ارتأ الباحثان ضرورة التقديم لما تم اعتماده في البحث عبر بيان الأصول المعرفية للسيميائيات السردية، وتحديد أهم المفاهيم الإجرائية المعتمدة في تحليل الرواية، والمتمثلة في النموذج العاملي وادواره ، والبرنامج السردي ومراحله واختباراته ، والمربع السيميائي وعلاقاته وعملياته ، ثم تطبيق ما تم التقديم له على نص الرواية للكشف عن البنية السطحية التي تتنضم المسار السردي للرواية وصولا الى المستوى العميق الذي اظهر أن البنية الدلالية للرواية تقوم بصورة أساسية على ثنائيتين متقابلتين هما: المعرفة/الجهل، والحياة/الموت، وما يتولد عنهما من علاقات النفي والتناقض والتضمين.

Abstract

This research attempts to uncover the narrative and semantic structure in the novel "Like Icarus" by the Egyptian novelist Ahmed Khaled Tawfik. It employs the mechanisms of narrative semiotics, a method developed by Greimas, which allows for a transition from the surface structure of events and characters to the deep structure that produces meaning. Due to the complexity of the terminology, its translations, and the abundance of analytical tools presented by Greimas in his various articles, the researchers deemed it necessary to preface the research by outlining the epistemological foundations of narrative semiotics. This includes identifying the key procedural concepts used in analyzing the novel, namely the actantial model and its roles, the narrative program and its stages and tests, and the semiotic square and its relationships and processes. The researchers then apply these preliminaries to the novel's text to reveal the surface structure that organizes the

narrative trajectory, leading to the deep level. This deep level demonstrates that the novel's semantic structure is fundamentally based on two opposing dualities: knowledge/ignorance and life/death, and the resulting relationships of negation, contradiction, and implication.

المقدمة

تناول البحث احدى الروايات التي نجحت بالمزج بين الخيال العلمي والوعي الفكري الفلسفي وهي رواية (مثل ايكاروس) للكاتب والطبيب المصري الراحل احمد خالد توفيق الحاصلة على جائزة افضل عمل روائي عربي لسنة 2016 في معرض الشارقة الدولي للكتاب .

وتعد رواية «مثل إيكاروس» نصًا سرديًا غنيًا بالتحولات والصراعات الدلالية، إذ تتمحور حول شخصية محمود السمنودي ومساره المتأرجح بين الرغبة العارمة للحصول على المعرفة والقوة من جهة، والرغبة في التخلص من تبعات هذه المعرفة من جهة أخرى.

اعتمد البحث على الادوات التي قدمها غريماس في مشروعه عن السيمياء السردية اذ تتيح الرواية مجالًا مناسبًا لتطبيق أدوات السيميائيات السردية، والكشف عن العلاقات العاملية والبرامج السردية والثنائيات الدلالية التي تنتظم فيها.

وقد قسمنا البحث الى مطلبين : نظري وتطبيقي ، اهتم المطلب الاول بالتعريف بالمشروع الغريماسي عبر التقديم للاصول المعرفية لنظريته واهم المفاهيم المركزية التي قدمها يأتي في مقدمتها النموذج العاملي الذي يختزل الأدوار السردية في ستة عوامل تنتظم ضمن محاور ثلاثة، والبرنامج السردي الذي يتتبع تحولات الذات وانتقالها بين حالات الانفصال والاتصال بموضوع القيمة، فضلًا عن المربع السيميائي الذي يكشف العلاقات المنطقية والثنائيات المتعارضة التي تسهم في إنتاج الدلالة.

اما المطلب الثاني فقد هدف إلى الكشف عن الكيفية التي تنتظم بها البنية السردية في الرواية، وتحديد أدوار العوامل ومسارات البرامج السردية، ثم الوقوف على البنية الدلالية العميقة التي تحكم حركة الشخصيات والأحداث.

المطلب الاول : تقديم نظري:

أولاً: الأصول المعرفية للسيميائيات السردية

لم يكن ظهور السيميائيات السردية بوصفها منهجاً نقدياً صارماً وليد الصدفة؛ وإنما جاء تتويجاً لمسار طويل من التحولات التي عصفت بالدرس النقدي واللغوي الحديث. ولقد تطلب تأسيس هذا الحقل إحداث قطيعة منهجية مع المقاربات السياقية الموروثة التي كانت تنظر إلى النص الأدبي على أنه وثيقة أو انعكاس لواقع خارجي، والانتقال نحو مقاربة محايثة تتخذ من النص بنية مغلقة ومكتفية بذاتها، وفي هذا السياق تبلورت الإرهاصات الأولى للمشروع السيميائي مستفيدة من منجزات اللسانيات البنيوية التي صاغها فرديناند دي سوسير، والتي وجهت بوصلة البحث نحو استنطاق أنظمة العلامات وآليات إنتاج المعنى، غير أن النقلة النوعية التي مهدت لنشوء السرديات البنيوية ومن ثم السيميائيات ارتبطت ارتباطاً جذرياً بالمنجز الشكلاني الروسي، وتحديداً مع فلاديمير بروب وكتابه مورفولوجيا الحكاية الخرافية.

لقد مثل كتاب "مورفولوجيا الحكاية الخرافية" لفلاديمير بروب، الصادر عام 1928م الحجر الأساس الذي شيدت عليه مدرسة باريس صرحها السيميائي، فقد انطلق بروب من فرضية منهجية تتمثل في الكف عن الاهتمام بالمضامين المتغيرة في الحكايات الشعبية الروسية، والتركيز على الأشكال الثابتة التي تحكم انتظام الحدث السردي فيها. وقد أفضى هذا

مجلة اجتماعية إنسانية محكمه تعتمد لأغراض الترقيات العلمية تصدر عن كلّية الطف الجامعة /
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد 2636 لسنة 2023

المسعى الاستقرائي به إلى اكتشاف أن تنوع الشخصيات واختلاف أسمائها وصفاتها لا يخفي حقيقة وجود أفعال أساسية متكررة ومحدودة داخل 100 نص حكائي روسي قام بدراسته، وقد أطلق بروب على تلك الأفعال مصطلح **الوظائف**، وبذلك وضع بروب قاعدته الشهيرة قائلاً إن الوظيفة هي: "فعل شخصية، تُعرف من وجهة نظر أهميتها المسيرة الفعل... فوظائف الشخصيات عناصر ثابتة باقية في الحكاية بالرغم من الكيفية التي تمت بها أو بوساطة من تم تحقيقها وتشكل هذه الوظائف أجزاء اساسية للحكاية"[1]. وبناءً على هذا المفهوم حصر بروب الوظائف في إحدى وثلاثين وظيفة سردية تنتظم في سبع دوائر للفعل تعود لشخصيات نمطية (البطل، المعتدي، المانح، المساعد، الأميرة، المرسل، البطل المزيف)[2] ليؤسس بذلك أول نحو سردي يفكك الخطاب إلى وحداته الصغرى.

وعلى الرغم من الأهمية التاريخية لمنجز بروب إلا أن النقاد والمشتغلين في حقل السيميائيات أدركوا القصور المنهجي الذي اعترى هذا النموذج، فلم يتحقق الانتقال من مورفولوجية بروب التي ظلت حبيسة الحكاية العجائبية إلى التجريد السيميائي الشامل لولا الجهود التي بذلها الفيلسوف وعالم الجمال الفرنسي إيتيان سوريو (Étienne Souriau) فقد نقل سوريو الاهتمام الهيكلي من الحكاية الشعبية إلى الخطاب المسرحي في كتابه مائتا ألف موقف درامي (Les 200,000 situations dramatiques). وبدلاً من دوائر الفعل السبع عند بروب، اقترح سوريو نظاماً أكثر تركيزاً يؤسس على ست وظائف درامية كبرى، معتمداً في تسميتها على رموز فلكية وهي: الأسد وهو القوة الموجهة أو البطل، والشمس وهو ممثل الخير المرجو أي الهدف، والأرض وهو المستفيد، والمريخ وهو المعارض، والميزان أي الحكم أو المرسل، والقمر المساعد[3]. وقد جسدت مقاربة سوريو خطوة حاسمة نحو التجريد النظري؛ إذ حررت الفعل السردي من النمط الفلكلوري الذي وسم المنجز البروبي وأثبت أن الأدوار الدرامية محدودة ومقننة مهما تنوعت النصوص أو تعقدت[4].

وبعد الإسهام الذي قدمه سوريو، أحدث كلود ليفي شتراوس (Claude Lévi-Strauss) عام 1955م منعطفاً حاسماً في مسار التحليل البنيوي للخطاب إذ وجه نقداً مفصلًا لمورفولوجية بروب، وحدد عدة نقاط، منها اكتفاءه بالتحليل الخطي المتتابع للوظائف السردية. وذلك في دراسته البنيوية للأساطير[5]، واقترح شتراوس مقاربة تركز على استخراج الوحدات الصغرى التي تنتظم وفق شبكة من التقابلات الضدية الثنائية[6]، وهذا الطرح الذي أرساه شتراوس شكّل الأرضية المعرفية الخصبة التي انطلق منها غريماس لاحقاً لتجاوز الشكلانية، وتقديم مربعه السيميائي.

وإلى جانب العمق البنيوي الذي أرساه ليفي شتراوس، يبرز عالم الأساطير واللغات جورج دوميزيل (Georges Dumézil) بوصفه رافداً معرفيًا هامًا في تشكيل المرجعية السيميائية لمدرسة باريس، فقد تجاوز دوميزيل في دراسته للأساطير الهندو-أوروبية مستوى السرد السطحي، ليكتشف ما عُرف بـ "النظرية الثلاثية" والتي تقرر أن تلك الأساطير والمجتمعات تنتظم وفق ثلاث وظائف كبرى ثابتة: السيادة سواء أكانت دينية أو سياسية، والقوة العسكرية، والإنتاج أي الخصوبة والاقتصاد[7]. هذا الاكتشاف لبنية أيديولوجية عميقة ومجردة تتحكم في نصوص متباينة ومتباعدة جغرافياً وتاريخياً، أحدث أثراً بالغاً في فكر غريماس، فقد وجد غريماس في منهج دوميزيل المقارن دليلاً عملياً على إمكانية استنباط بنية دلالية كبرى تتحكم في توليد الخطابات، وهو ما مكنه من الانتقال من مجرد شكلانية تصنيف الوظائف السردية إلى

تأسيس علم دلالة بنيوي قادر على ضبط الأنساق الثقافية والأيديولوجية المتوارية في البنية العميقة للنص.

لقد رأى النقاد أن عمل بروب ظل حبيس التصنيف الاستقرائي كما أنه بقي مقيداً بمتن حكائي محدد في حقل الخرافة الروسية العجائبية مما جعله قاصراً عن مقاربة الخطابات السردية الحديثة الأكثر تعقيداً ومن هنا أخذت مدرسة باريس للسيميائيات على عاتقها مهمة إعادة صياغة نموذج بروب وتجريده ليتسنى تطبيقه على نصوص أوسع وأكثر تعقيدا، ويشير الباحثون إلى أن غريماس استطاع أن يتجاوز مورفولوجية بروب من خلال تحويل أدوار الحركة السبعة إلى مقولات مجردة، مستفيدا من جهود بروب، وتشخيصات كلود ليفي شتراوس، وعوامل سوريو، ليعمل على تقديم نموذجه العاملي، ومن ثم العمل على استبدال مفهوم الشخصية (Personnage) ذي الحمولة النفسية والأنثروبولوجية، بمفهوم العامل (Actant) ذي الطبيعة النحوية والمجردة[8].

لقد استند المشروع الغريماسي في تأصيله المعرفي إلى إعادة صياغة المقولات السابقة في ضوء اللسانيات البنيوية والمنطق ليطرح النموذج العاملي الذي يختزل السرد برمته في ستة عوامل تتفاعل ضمن ثلاثة محاور دلالية هي: (الرغبة، التواصل، الصراع) وفي هذا السياق، أكد غريماس أن المعنى السردي لا يكمن في الظواهر السطحية للنص، بل يتولد من خلال شبكة العلاقات العاملية في مستواها العميق، مقراً بأن العوامل ليست كائنات حية، ولا تكتسب دلالتها إلا من خلال الموقع الذي تشغله داخل البنية، والعلاقة التي تربطها بالعوامل الأخرى[9]. هذا التجريد العالي مكّن السيميائيات السردية من امتلاك جهاز واصف قادر على استيعاب أي نص روائي مهما بلغت درجة تشعبه.

وقد تباينت آراء النقاد حول هذه النقلة الكبيرة التي أنجزتها مدرسة باريس؛ ففي حين يرى نقاد السرديات الحديثة، كـ والاس مارتن، أن غريماس منح الدرس السردي علميته وصرامته المفقودة وخلصه من الانطباعية[10]، ويوجه آخرون نقداً للإفراط الملحوظ في التجريد الرياضي والمنطقي الذي اتسمت به المرحلة الأولى من سيميائيات غريماس، وذلك لأنها عملت على إخضاع النص الروائي الذي يحمل الأفكار والأحاسيس الإنسانية لصرامة المعادلات العاملية، وهذا ما قد يتسبب بإغفال الجوانب الجمالية والانفعالية العميقة في الخطاب الروائي، وهو نقد استوعبته مدرسة باريس لاحقاً مما دفع غريماس في أواخر مشروعه بالتعاون مع جاك فونتاني إلى الانعطاف نحو ما عُرف بسيميائيات الأهواء لإعادة الاعتبار للذات المتلفظة ولحالاتها الوجدانية، والتقليل من الصرامة المنطقية من خلال طرح الأبعاد الحسية والانفعالية، لتكتمل بذلك الدورة المعرفية للمنهج[11].

ثانياً: المصطلحات الإجرائية للبحث (النموذج العاملي، البرنامج السردي، المربع السيميائي)

لا يمكن مقاربة النص الروائي سيميائياً دون تفكيكه عبر جهاز مفاهيمي ينقل التحليل من الانطباع السائد إلى الموضوعية. وقد استقرت السيميائيات السردية ممثلة بـ غريماس على جملة من المفاهيم الإجرائية التي تشكل مجتمعةً ما يُعرف بـ المسار التوليدي للمعنى (Parcours Génératif du Sens)[12]. وفي هذا السياق، يتأسس الجانب التطبيقي لهذا البحث على ثلاثة مفاهيم مركزية تتضافر لإنتاج القراءة السيميائية، وهي: النموذج العاملي، والبرنامج السردي، والمربع السيميائي.

يُعد النموذج العاملي (Actantial Model) الحجر الأساس في التحليل السيميائي، وهو البنية العلائقية التي تنظم

مجلة اجتماعية إنسانية محكمه تعتمد لأغراض الترقيات العلمية تصدر عن كلّية الطف الجامعة /
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد 2636 لسنة 2023

الأدوار داخل السرد، ولقد أحدث هذا المفهوم قطيعة مع النقد التقليدي الذي كان يمعن في الأبعاد النفسية والاجتماعية لـ الشخصية الروائية. فتراجع مفهوم الشخصية ليحل محله مفهوم العامل (Actant) بوصفه موقعاً نحوياً مجرداً، وقد تكون إنساناً، أو فكرة، أو جماداً وهو ما يؤكده محمد عزام بقوله: "ميز غريماس بين العامل والممثل فقدم بذلك فهماً جديداً للشخصية في الحكي هو ما يمكن تسميته الشخصية المجردة. وهي قريبة من مدلول الشخصية المعنوية في عالم القانون، فليس من الضروري أن يكون العامل شخصا ممثلا، فقد يكون مجرد فكرة كفكرة التاريخ أو الدهر، وقد يكون جمادا أو حيوانا... إلخ. وهكذا تصبح الشخصية مجرد دور يؤدى في الحكي، بغض النظر عمن يؤديه"[13].

ويشير الناقد سعيد بنكراد في مقاربته لهذه الإشكالية، إلى ضرورة التمييز الدقيق بين الممثل (Actor) الذي يطفو على السطح النصي بملامحه وأسمائه، وبين العامل الذي ينتمي إلى البنية العميقة ويُعرّف حصراً من خلال الفعل الذي ينجزه، ويتابع بنكراد معلقا على رؤية فيليب هامون للشخصية بقوله: "على ألا ننسى أن نأخذ في الحسبان مجموع مسار الشخصيات، دون المبالغة في تقدير قيمة المعايير الكيفية. وذلك أن شخصية ما تقوم مرات عديدة بالوظيفة نفسها لن تكون بالضرورة أكثر أهمية من غيرها، لأن مجموعة هامة من الوظائف المتكررة... يمكن اعتبارها توضيحا مبالغا فيه المواصفة وحيدة ودائمة تتعلق بالشخصية"[14] ويتشكل هذا النموذج، كما حدده ألجيرداس جوليان غريماس من ستة عوامل تنتظم في ثلاثة محاور دلالية متقاطعة: أولها محور الرغبة أو القصدية، الذي يربط بين الذات الباحثة والموضوع ذي القيمة، وهو المحرك الأساس لانطلاق السرد[15]. وثانيها محور التواصل أو المعرفة، الذي يجمع بين المرسل الذي يحفز الذات، والمرسل إليه الذي يستفيد من تحصيل الموضوع[16]. وثالثها محور السلطة أو الصراع، ويضم المساعد الذي يذلل العقبات، والمعارض الذي يسعى لإعاقة الذات عن بلوغ موضوعها[17]. ويتيح هذا التوزع فهم حركية الصراع الروائي بعيداً عن التشعبات الوصفية.

غير أن النموذج العاملي يظل بنية سكونية مالم يندمج في حركة النص، وهنا يبرز مفهوم البرنامج السردي (Narrative Program) بوصفه الأداة الإجرائية الثانية، ويُعرّف بأنه المتتالية المنطقية والزمنية للتحولات التي تخضع لها العوامل، أو بعبارة أدق، هو تتبع مسار انتقال الذات من حالة الانفصال عن موضوع القيمة، إلى محاولة تحقيق الاتصال به، أو العكس. ويعرفه محمد القاضي بأنه: "تتابع موضوعي لمجموعة برامج سردية بسيطة أو مركبة تترابط في ما بينها ترابطاً منطقياً إذ إن كل برنامج سردي يقتضيه برنامج آخر بناء على ذلك فالمسار السردي يضم من الأدوار الفاعلية ما يوازي البرامج السردية التي تكونه"[18].

ويوضح النقاد أن هذا المسار لا يحدث اعتباطاً وإنما يخضع لنحو سردي يمر بأربع مراحل أساسية وهي التحفيز (Manipulation) التي تعني "حمل الفاعل الإجرائي على تنفيذ مهمة ما في ضوء المؤهلات والإمكانيات المتوفرة لدى الفاعل الذات، وغالبا ما يكون التحفيز أو التطويع من قبل المرسل إقناعا وتأثيرا وشرحا"[19] إذ تكتسب الذات إرادة الفعل، ثم تأتي مرحلة الكفاءة (Compétence) التي تعرف بأنها: "مجمل الشروط الأساسية والضرورية لتحقيق الإنجاز الفعلي. ويعني هذا أن الفاعل الإجرائي لا يمكن أن يقوم بأدواره الإنجازية، إلا بالاعتماد على مجموعة من المؤهلات الضرورية سواء أكانت مؤهلات عقلية معرفية أم مؤهلات جسدية أم مؤهلات أخلاقية"[20] فهي تعنى باكتساب المعرفة

والقدرة، مروراً بالإنجاز (Performance) وهو الفعل المحول ذاته، فهو "يشكل نوعا من التحول لحالة معينة تقتضي عاملا هو الفاعل الإجرائي، ويمكن النظر إلى الإنجاز باعتباره برنامجا سرديا للذات، ويكمن في تحويل إحدى حالات الاتصال أو الانفصال للذات بالموضوع"[21]، وصولاً إلى الجزاء (Sanction) الذي يتضمن التقييم النهائي لنجاح الذات أو إخفاقها، فهو إذن "تثمين لعمل الذات البطلة وتمجيد لمهماتها، أو قد يكون قدحا مشينا في ما قامت به من أفعال وأعمال لا ترضي المرسل في ضوء ما تم إبرامه من عقود مشتركة"[22]. وتؤكد الدراسات السردية أن تتبع هذه البرامج المتداخلة سواء أكانت الأساسية والفرعية هو ما يكشف البنية العميقة لتطور الحدث الروائي ومآلاته[23].

ويعتمد التحليل السيميائي على المربع السيميائي (Semiotic Square) بوصفه الأداة الإجرائية الثالثة والأكثر عمقاً، وينطلق هذا المفهوم من المسلّمة اللسانية السوسيرية التي تقرر أن المعنى لا يوجد إلا في الاختلاف[24]، ويعرف المربع السيميائي بأنه: "بنية انبثاق تسعى إلى تمثيل كيف يتم إنتاج الدلالة عن طريق سلسلة من العمليات الإبداعية لمواقع متباينة"[25]، ويقول محمد القاضي إن المربع السيميائي: "مصطلح ابتدعه غريماس للدلالة على المنوال المنطقي الذي تصور من خلاله شبكة العلاقات وتمفصل الاختلافات، فالمربع السيميائي هو الذي يمثل العلاقات الرئيسية التي تخضع لها ضرورة وحدات الدلالة حتى يتولد من ذلك كون دلالي يمكن أن يتجسد"[26]، ويبدو إن هذا المصطلح لم يكن من ابتداع غريماس نفسه، وإنما استقاه من أرسطو الذي أرسى مصطلح مربع التقابل[27]، ويشمل المربع عدة أحكام للقضايا المنطقية منها حكم التناقض والتضاد والتقابل وغيرها[28].

لقد طوّر غريماس هذه المقولة ليؤسس شبكة منطقية تمثل البنية الدلالية العميقة للنصوص السردية، فلا يكتفي المربع السيميائي برصد التضاد البسيط نحو الأبيض/الأسود، وإنما يفكك العلاقات المنطقية المولدة للمعنى عبر ثلاثة مستويات: علاقة التضاد (Contrariété) بين مصطلحين إيجابي وسلبي، وعلاقة التناقض (Contradiction) التي تمثل نفي المصطلح الأصلي، وعلاقة التضمن أو الاقتضاء (Implication)[29]. وفي هذا السياق، يرى النقاد والمنظرون، ومنهم أمبرتو إيكو في تفكيكه للعلامات، أن قوة المربع السيميائي تكمن في قدرته على كشف الأيديولوجيا المتوارية خلف الخطاب من خلال تتبع كيفية إنتاج النص لقيمه الدلالية وإقصائه لقيم أخرى[30]. إن هذا الجهاز المنطقي، كما يؤكد فيصل الأحمر هو ما يمنح الناقد القدرة على القبض على الرؤية الفلسفية الشاملة التي يبثها الروائي عبر مسارات شخصياته[31].

المطلب الثاني: البناء السردي والدلالي للرواية

أولاً– المستوى السطحي

يتأسس الأنموذج العاملي في رواية مثل إيكاروس للأديب المصري الدكتور أحمد خالد توفيق من عدة برامج سردية متداخلة، فالمعنى فيه لا يتولد من مسار خطي أحادي، بل من تضافر وتصادم مجموعة من البرامج الأساسية والفرعية التي تنجزها الذوات المتعالقة في النص. ويمثل مسار البطل "محمود السمنودي" بؤرة هذا التشكيل السردي، إذ ينشطر مساره إلى برنامجين أساسيين متناقضين، تتقاطع معهما برامج أخرى تخدم البنية الدلالية الكلية. ولعل مسار الترقي المعرفي يُمثل البرنامج المحرك الأساسي للنص، إذ تنهض (الذات) المتمثلة في محمود السمنودي بالسعي نحو موضوع القيمة المتمثل في القوة المطلقة أو الولوج إلى ما

مجلة اجتماعية إنسانية محكمه تعتمد لأغراض الترقيات العلمية تصدر عن كلّية الطف الجامعة /
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد 2636 لسنة 2023

يُعرف بـ السجلات الأكاشية، وهو ما ذكره الراوي بقوله: "أردت أن أنقل لك أنه ازداد خوفا وانكماشا وتوحدا. وأعتقد أنه بحث في الكتب كثيرا عن وسيلة تجعله قويا. وسيلة تجعل من العسير أن يغتصبه شخص آخر. هنا يدرك المرء أن الطرق الطبيعية المادية بطيئة جدا ونتائجها غير مضمونة، من ثم يفكر في حل ميتافيزيقي سريع"[32]، فهو لا يسعى إلى الطرق التقليدية للوصول لذا يلجأ إلى الكتب التي تشكل المساعد الأبرز في هذا البرنامج.

وتتشكل ملامح محور التواصل الذي يوجه حركة الذات؛ إذ يبرز (المرسل) في هذا البرنامج بوصفه منظومة قهر اجتماعي متكاملة، تتمثل في المجتمع المحيط المتربص ويظهر أطفال المدرسة المتنمرين في قول الراوي: "في النهاية يرحل هشام واعدًا بالمزيد في الغد. ومحمود يعرف أنه لن يشكو لأبيه – أبي محمود – أبدًا ... يفضل أن يتلقى نفس العلقة كل يوم على أن يشكو. سوف يلومه أبوه ويتهمه بأنه أفرط في اللهو أو أنه لا يحافظ على ثيابه"[33]، والأستاذ المعتدي الذي تقدم ذكره، وصولاً إلى جموع الطلبة الرافضين لاختلافه، والذين يرونه معاقًا من غير إعاقة، وهو ما يوضحه الراوي بقوله:"فتاة في الدفعة اسمها مديحة ظلت تراقبه وهو يمشي في الردهة ثم مالت على صاحبتها وهمست:هل تعرفين الغريب في هذا الفتى؟.. لقد فقد ساقه الرابعة في حادث!. قالت صاحبتها وتدعى مي: أو ربما فقئت عينه الخامسة. أو بتر أحدهم أذنه الثالثة!"[34] لقد مارست هذه القوى مجتمعةً دور المحفز القاهر الذي أجبر الذات على البحث عن مخرج ميتافيزيقي للفرار من هشاشتها وانسحاقها. أما المرسل إليه أي الجهة المستفيدة من هذا المسعى فهو محمود السمنودي نفسه، الذي كان يمني النفس بقطف ثمار هذا التحول ليعيد بناء ذاته، وينتقم من محيطه عبر التعالي عليه. وهنا يتبلور موضوع القيمة الذي سعت إليه الذات للاتصال به، والذي يتمثل في المعرفة المطلقة بوصفها سُلطة درء وتحصن؛ فالسمنودي لم يبحث عن المعرفة فقط في محاولاته الولوج إلى السجلات الأكاشية بل سعى لامتلاك قوة رادعة تعوضه عن ضعفه الجسدي ونبذه الاجتماعي، وتمنحه القدرة على قراءة أفكار جلاديه واستشراف الغيب ليكون دائماً بخطوة تسبقهم.

ولكي يكتمل الأنموذج العاملي لهذا المسار، كان لا بد من رصد محور السلطة والصراع الذي يكتنف حركة السمنودي. ويتجلى المساعد في هذا البرنامج من خلال الكتب القديمة التي مثلت الملاذ الآمن والأداة فتحت الأبواب للسمنودي نحو الحل الأسرع للحصول على القوة، وذكر الراوي ذلك بقوله: "الجزء الأهم مما وجده فهو تلك الكتب الغامضة التي خيل له أولا أنها كتب دينية، ثم عندما دقق عرف أنها كتب سحر.. كتب ملأى بالطلاسم والأحجبة.....هذه هي اللحظة التي أدرك فيها محمود مشروع عمره، وعرف أنه سيقضي ساعات لا حصر لها مع هذه الكتب يفك طلاسمها"[35]، فالكتب هي التي ملأت الحيز الاجتماعي للسمنودي، وحثته على مواصلة الحياة بأمل الوصول إلى أسرارها ليصبح الأقوى، أو كما يعبر الراوي، السمكة الأكبر التي تستعصي على الإبتلاع.

وفي المقابل، لم يكن هذا المسار يسيرا، إذ نهضت الزوجة لتجسد دور المعارض الأبرز في هذه المرحلة؛ فقد مثلت قوة مانعة تفشل مخططات السمنودي ومحاولاته للوصول إلى الاتصال الكامل بالعالم، لكن الراوي ابقى هذه الاحداث في طي المسكوت عنه ليشرك القارئ بالاستنتاج الشخصي حول شخصية الزوجة بوصفها معارضًا، فقد شكلت قيداً أسرياً ونفسياً يعيق تحقيق الذات الوصول إلى عالمها

مجلة اجتماعية إنسانية محكمه تعتمد لأغراض الترقيات العلمية تصدر عن كلّية الطف الجامعة /
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد 2636 لسنة 2023

الموازي المنشود، لتمارس بذلك دوراً معطلاً لبرنامج السمنودي التصاعدي.

وعلى مستوى المراحل التي مرت بها العوامل في هذا البرنامج السردي الذي يشكل أساس الرواية، تأتي مرحلة التحفيز في الآلية التي دُفعت بها الذات للخروج من حالة السكون المبدئية. وقد تحقق هذا التحفيز عبر توالي الإحباطات والاعتداءات المتكررة التي شكلت ضغطاً نفسياً واجتماعياً قاهراً، فلقد ولّدت هذه التراكمات لدى السمنودي قناعة تامة بعدم جدوى المقاومة المادية، وضرورة البحث عن خلاص غيبي. وقد شكلت مشاعر النقص والرغبة العارمة في الانتقام قوة إقناعية داخلية وتحفيزاً بالرغبة والاضطرار، جعلت الذات تقبل طواعية الانخراط في مسار البحث المحموم عن القوة المطلقة، مستعدة لدفع أي ثمن في سبيلها.

ولا يمكن للذات أن تنجز فعلها المحول دون امتلاك المعرفة والقدرة، وقد تجسدت الكفاءة هنا في شقين: شق نظري تمثل في عكوف السمنودي على فك طلاسم الكتب القديمة وعزلته التي هيأت بنيته النفسية، وشق عملي تُوّج لاحقاً بتلك التجربة التي عكف عليها، والتي ذكرها الراوي في قوله: "كان راقدا وقد فتح قدميه وذراعيه ليبدو كأنه حرف X كبير، أو كأنه برص عملاق سقط فوق الفراش على ظهره عيناه مفتوحتان زجاجيتان تحدقان في السقف ولا تريان هناك عصابة يبدو أنه كان يحجب بها عينيه من النور كما يفعل من يريدون أن يغفوا في طائرة، وكذا كانت هناك سدادات في أذنيه.. لا يريد أن يسمع حرفًا.. هذا رجل وضع نفسه في حالة حرمان حسي شبه تامة"[36]، هذه التجربة التي خاضتها الذات، والتي يسميها (الرحلة) هي من حققت الاتصال بموضوع الرغبة، وهو ما اوصله إلى مرحلة الإنجاز، وتمثل هذه المرحلة ذروة الهرم السردي والهدف المركزي للبرنامج؛ إذ يتحقق الفعل المحوّل، وتنتقل الذات فعلياً من حالة الانفصال إلى حالة الاتصال التام بموضوع القيمة. فقد أنجز السمنودي مهمته باختراق حجب الغيب والولوج إلى السجلات الأكاشية لتكتسب الذات هنا صفة الهيمنة، وتصبح قادرة على رؤية المستقبل، ومعرفة خبايا الماضي المنسي. لقد تحقق الهدف، وأصبحت الذات تمتلك السلاح المعرفي الذي طالما بحثت عنه للتعالي على جلاديها.

وفقاً للنسق السيميائي، يجب أن يُقابل كل إنجاز بتقييم أو جزاء. وهنا تبرز الرؤية الفلسفية العميقة للرواية؛ فالجزاء لم يكن إيجابياً يحقق للذات طمأنينتها المنشودة، بل جاء عقابياً وتدميرياً. إذ إن المعرفة المطلقة التي سعت إليها الذات تحولت، فور الاتصال بها، إلى لعنة قاهرة متمثلة في الشيب أولا، ثم الاكتئاب، وصولا إلى محاولات الانتحار، وهو ما ذكره الراوي بقوله: "كان واقفا على السور حافي القدمين، متمسكا بصارية الهوائي العتيق الذي لم يتخلصوا منه بعد. كان في لحظة الصراع النهائية قبل اتخاذ القرار. قبل الخطوة الأخيرة التي ستجعله جثة راقدة في المشرحة، وخبرا في الصحف وضيفًا جديدا في الجحيم.. كان عاجزا عن اتخاذ القرار، أو هو اتخذه لكن قبضته تمردت وتمسكت بالحياة فلم تتخل عن الصارية"[37] فلقد كان اختراق الغيب عبئاً يفوق طاقة الاحتمال التي تلمكها الذات، مما أدى إلى تصدعها وانزلاقها نحو جحيم الجنون والعزلة المضاعفة، ليتحقق بذلك التناص الأسطوري مع احتراق إيكاروس[38] الذي جاءت الرواية على اسمه.

ولما كان الاتصال بالقوة المطلقة قد أفضى إلى جزاء تدميري في البرنامج الأول، فقد تشكل في مسار الرواية فعل سردي ولّد برنامجين متضادين يحكمان النصف الثاني من النص. يتمثل الأول في الخلاص والعدم إذ تتبدل غاية الذات؛ فبعد أن كان السمنودي يسعى للاتصال بالسجلات

الأكاشية[39] أصبح موضوع القيمة الجديد هو التخلص من هذا العبء عبر الصمت المطلق، وهو ما ذكره الراوي: "وأدركت هذه المرة أن عظام يده مهشمة.. يضمدها بالشاش بطريقة تذكرك بالمجذومين الذين تراهم في أفلام السينما. كما أدركت أن هناك شيئًا على غير ما يرام في فمه.. لم أتبين لسانه –الذي لم يعد هنالك– إلا مؤخرا"[40] أو الموت، الذي سعى إليه في محاولات إنتحار متكررة، أو اللجوء إلى الرحمة الإلهية، وقد ذكر الراوي ذلك بقوله: "ربي!.. الإصر ثقيل لا تتحمله كتفاي. أعلم أن هذا تم بإذنك ومشيئتك ما كان له أن يحدث من دون إذنك ومشيئتك، لكن كاهلي أنا الفاني ينوء بما عرفت، ولات حين مناص. هبني النسيان.. هبني الجهل.. هبني الغفلة.. أعدني طفلًا غريرًا كما كنت وكما البشر من حولي الذبابة إن دنت من النار أكثر من اللازم احترقت، والبئر إذا امتلأت فاضت"[41]، فقد لجأت الذات لسلك طرق مؤلمة في سبيل الانفصال عن الموضوع، تجلت في تقطيع الأطراف، واللسان، والهرب، ثم التخلي عن فكرة الموت واللجوء إلى الرحمة الإلهية أملا في تسريع موتها، أو حذف الذاكرة، أو الرجوع بالزمن، ومع ذلك فإن هذا الانفصال لم يحدث بالطريقة التي سعت لها الذات. ووفقا لما تم طرحه، يتحدد المرسل في هذا المسار بوصفه دافعاً نفسياً ووجودياً يتمثل في الرعب الناجم عن كشف الحجب، ورؤية مآسي المستقبل، فضلاً عن رغبة الموت، وفقدان لذة الجهل والوهم، ليكون المرسل إليه هو السمنودي نفسه، الذي جرب أقسى الطرق وابشعها بحثاً عن السلام الأبدي والراحة من ضجيج الحقيقة.

وفي خضم هذا المسعى، تستعين الذات بـ مساعدين من طبيعة خاصة، تمثلوا في محاولات الانتحار المتكررة، وابتكار شفرات لغوية معقدة لسد منافذ التواصل مع الآخرين، وهو ما يحدده الراوي بقوله: "حاولت أن أفهم كلماته الرقمية. لاحظت دوائر صغيرة داخل صفحات الكتب وعرفت من أين جاءت. راجع مجموعات الأرقام الرقم الأول لا يتجاوز عدد الكتب الثاني لا يتجاوز عدد صفحات الكتاب الثالث لا يتجاوز عدد سطور الصفحة. الرابع لا بتجاوز عدد كلمات السطر"[42]، وصولاً إلى الانسحاب نحو غيبوبة إرادية لتجميد الوظائف الحيوية[43]. غير أن هذا المسار يصطدم بـ معارضين أقوياء حالوا دون تحقيق الذات لمبتغاها؛ وتجسد ذلك في الطبيب النفسي (الراوي) وعمال المصحة الذين فرضوا طوقاً من الحماية القسرية لإبقائه حياً، إلى جانب المفارقة الأبرز التي تمثلت في الجسد البشري للسمنودي ذاته، والذي نهض كقوة معارضة تقاوم الموت وترفض الاستسلام للجرعات المميتة، فضلاً عن الحصار الخانق الذي فرضته أجهزة المخابرات الدولية عليه، نظرا لكونه كنزًا استخباراتيا مستقبلياً يمكنه تحديد المخاطر المحدقة بالجميع ليتداركوها.

وفي مقابل هذا المسار التدميري الذاتي، يبرز البرنامج السردي المضاد ممثلاً بمسار الاستغلال والهيمنة، والذي يمثل تحولاً بالغ الأهمية؛ إذ يتحول السمنودي بجسده وما يحمله من معرفة مطلقة من ذات فاعلة إلى موضوع قيمة تسعى إليه ذوات أخرى، وتتجسد الذات هنا في القوى العالمية الكبرى وأجهزة الاستخبارات ممثلة بعدة ممثلين منهم الجنرال أندرو هيل، والعميلين هوفمان ومايكل، ويسعى هؤلاء لاستخلاص هذه المعرفة وتحويل السمنودي إلى سلاح استراتيجي. وقد تشكل المرسل من الدافع لهذه القوى في إرادة الهيمنة العالمية وتأمين التفوق الاستراتيجي، ليكون المرسل إليه هو الأنظمة الاستعمارية والحكومات. ولتحقيق الاتصال بموضوع القيمة، استعانت هذه الذوات بمساعد تقني ومؤسساتي، تمثل في شبكات المراقبة، والكاميرات، وأجهزة

التنصت التي حاصرت السمنودي على مدار الساعة، فتحولت المصحة النفسية إلى قفص آمن يحفظ هذا الكنز المعلوماتي من التلف[44]. في المقابل، نهض السمنودي نفسه ليمارس دور المعارض الأشرس ضد هذا البرنامج؛ إذ قاومهم بسلاح الصمت المطبق، ورفض التعاون، ومحاولات التدمير الذاتي لحرمانهم من المعرفة. كما تقاطع هذا الدور المعارض، ولو جزئياً، مع شخصية الطبيب النفسي الذي انتابته مشاعر التعاطف، فحاول في محطات معينة إخفاء حقيقة مذكرات السمنودي وحمايته من هذا الاستغلال البشع.

ويخضع البرنامج السردي الساعي إلى الانفصال لتراتبية حازمة؛ إذ تبدأ مرحلة التحفيز من إدراك الذات لفداحة الاتصال، فقد شكّل الرعب من المعرفة، والضجيج العقلي الداخلي قوة قاهرة دفعتها للبحث عن مخرج نهائي. فقد تشبع السمنودي بالمعرفة، ومال إلى الحذر حتى اصبح المقربون منه يرونه أقرب إلى الجنون، وهو ما ذكره الراوي بقوله: "ثمة ظاهرة جديدة بدأت تتكرر؛ هي أنه يمنع زوجته من الخروج... لا تذهبي لأمك.. لا تقصدي السوق.. لا تذهبي لعملك في مكتب المحاماة.. لا تزوري جارتك.... الطريق مظلمة موحلة، والغابة مفزعة تترصد فيها الذئاب تتشمم بحثا عن رائحة الدم، فمن لم تظفر به الذئاب وجدته الأشباح وامتصت دمه لتتركه مفرغا بلا قطرة دم في العروق الطريق تغص بمن فقدوا السبيل فاستحالوا كالغيلان في الخارج يتربص مولوخ وبعل ينتظران الضحايا البشرية"[45]، فهذا الهوس المتولد من المعرفة الكاملة لكل ما في الوجود وما حدث وسيحدث مبرر من قبل الذات، لكنه في رأي الممثلين الأخرين مجرد هلوسات واضطرابات نفسية أو بارانويا مبالغ بها[46]. ولتحقيق ذلك، كان لزاماً على الذات أن تمر بمرحلة الكفاءة، والتي تجسدت هنا في قدرة السمنودي على ابتكار آليات دفاعية وانسحابية معقدة، مثل تعلم تشفير اللغة عبر الأرقام الذي تمت الإشارة إليه، وتدريب الجسد على الدخول في غيبوبة إرادية، وتهيئة الأدوات اللازمة للانتحار.

وتتجلى مرحلة الإنجاز في التنفيذ الفعلي لهذه الآليات؛ إذ يمارس السمنودي أقصى درجات العنف ضد ذاته عبر محاولات الانتحار، وبتر لسانه، والتوقف عن التواصل البشري الطبيعي، ليحقق انفصالاً جزئياً عن محيطه، كما إن اللجوء إلى الاختباء والتظاهر بالموت واحدة من أبرز أساليبه، يقول: "أنا جئت من الصحراء.. البصاصون ورجال المحتسب تخلصوا من جثتي لكني لم أمت.. ظنوا أنني هلكت، لكني تواريت هناك في المكتبة. بين السجلات.. وعندما تركوني مكسوا بالرمال كي تأكلني الذئاب، خرجت من المكتبة.. مشيت"[47].

غير أن مرحلة الجزاء لم تنجح إلا بعد فترات محبطة وطويلة؛ إذ تنجح الذات أخيرا في تحقيق الانفصال الكلي بالموت، على الرغم من وقوف القوى البيولوجية والمؤسساتية حائلاً دون خلاصها، وذلك بالاعتماد على المساعد المتمثل بالطبيب النفسي/ الراوي، الذي يقدم الصورة النهائية لمرحلة الجزاء على صعيد البرنامجين السرديين، يرد ذلك بقول الراوي: "كان يعرف يا سيدي المحقق... يعرف... وعندما وجهت الضربات الأولى نظر لي تلك النظرة الحادة المتهمة التي لا تطرف العين معها.. عندها فقط تذكرت الانطباع الذي كان يتركه لدى الناس جميعا أنه ذو عاهة ما"[48]. فالراوي/ المساعد هو من أغلق البرنامج الرئيس بتحقيق نقطة الانفصال ليفتح برنامجا فرعيا خاصا به يتم من خلاله طرح مسألة القاتل على مستوى النص الكامل.

وفي المقابل، يسير البرنامج المضاد الخاص بأجهزة الاستخبارات وفق تدرج موازٍ، إذ تنطلق مرحلة التحفيز بمجرد

انكشاف قدرات السمنودي الخارقة، إذ تولد لدى هذه القوى رغبة محمومة في امتلاك هذه الذات لضمان التفوق العالمي، وهو ما يؤكده النص بقوله: "يستطيع أن يغيب في السجلات الأكاشية كما فعل في مصر ويبدو ميتا، لكنهم لن يصدقوا أنه مات.. هم يعرفون أنه مارس هذه الحيلة من قبل، ولسوف ينقلونه لمركز طبي ويراقبونه أربعا وعشرين ساعة إلى أن يفيق، أو لن يعتقوه إلى الأبد وحتى تتعفن جثته"[49]، فالذات تعرف أنها على قدر كبير من الأهمية لدرجة رغبة الممثلين بالاحتفاظ بها حتى لو كانت جثة متعفنة. وتنتقل هذه القوى فوراً إلى مرحلة الكفاءة عبر حشد ترسانتها التقنية والمؤسساتية؛ من أجهزة تنصت، وعملاء، وكاميرات مراقبة، وتحويل المصحة إلى ثكنة محكمة الإغلاق لضمان عدم تسرب موضوع القيمة.

وتصل هذه القوى إلى مرحلة الإنجاز عبر فرض الحصار الشامل على السمنودي، ومراقبته على مدار الساعة، ومحاولة استنطاقه وفك شفراته بشتى الطرق العلمية والطبية للوصول إلى السجلات الأكاشية، ويسرد الراوي ذلك بقوله: "لكنهم كانوا يعرفون ما سيفعلون. الأمر أقرب إلى جهاز كشف الكذب.. عندما يوصلون الأقطاب إلى رأس محمود، سوف يوجهون له أسئلة من طراز (نعم–لا). موجات الدماغ هي التي ستخبرهم بالإجابة موجات نعم تختلف عن موجات لا.. موجات (نعم) هادئة رخوة مسالمة قنوع.. موجات (لا) متمردة عاصية عدوانية عصبية لا ترضى بشيء.. هذه أجوبة لا خداع فيها ولا تلاعب. فلو كان محمود أكثر حكمة لدمر أذنيه حتى لا يسمع.. لربما فجر رأسه كذلك حتى لا تتجسس الأقطاب عليه"[50]. غير أن الرواية تبلغ ذروة حبكتها في مرحلة الجزاء الخاصة بهذا البرنامج؛ فبالرغم من الكفاءة العالية والإنجاز المادي، إلا أن الجزاء جاء سلبياً فقد نجح السمنودي عبر صمته وغيبوبته وبتر لسانه، وموته لاحقا، في حرمان هذه القوى من تحقيق الاتصال بموضوع القيمة. فقد حاولت السلطة الاحتفاظ بالجسد، لكنها فشلت في الوصول إلى المعرفة المحتوى.

إن هذا الاصطدام بين البرنامجين، والذي أفضى إلى إخفاق على مستوى البرنامج الثاني فقد نجح السمنودي بالوصول إلى الموت، وفشلت السلطة في استغلاله، هو ما يكرس الرؤية العبثية والمأساوية للنص، ويمهد الطريق للبحث في الجذور العميقة لهذا الصراع المتصل بالأسطورة التي جاءت الرواية على اسمها.

ثانياً: المستوى العميق

وبالوصول إلى المستوى العميق يمنح المربع السيميائي حركية للممثلين وتنقلاتهم بين الزوايا المتقابلة والمتناقضة، إذ يفكك هذا الجهاز البنية العميقة للنص الروائي عبر شبكة من المتضادات، وفي رواية مثل إيكاروس، تبرز ثنائيتان أساسيتان تحركان مسار الشخصيات وتدفعانهم للتنقل عبر فضاء المعنى؛ تتمثل الأولى في ثنائية المعرفة مقابل الجهل، بينما تتجلى الثانية في البعد الوجودي عبر ثنائية الحياة مقابل الموت.

ففي المربع السيميائي الأول القائم على ثنائية المعرفة/الجهل، لا تحيل المعرفة هنا إلى مفهوم تقليدي، وإنما إلى المعرفة المطلقة المتأتية من قراءة السجلات الأكاشية، والتي تغدو أشبه بلعنة اقتراب إيكاروس من الشمس[51]. وتتوزع هذه الثنائية على أربع زوايا؛ تبدأ بالمعرفة بوصفها وصولا مطلقاً إلى أسرار الكون، وهو ما يذكره الراوي عن لسان محمود بقوله:"ما أطالعه هو محاولة الإنسان لفهم الكون من حوله سنموت دون أن نعرف .. سنعرف بعد الفناء، ووقتها لن يفيدنا هذا العلم. ما حاوله هؤلاء هو محاولة النظر في

المرآة لرؤية ما استغلق علينا.. ما يدور في الأركان المظلمة.. نعرفه ونحن بوعينا هذا"[52]، وتقابلها زاوية الجهل التي تمثل الحالة البشرية الطبيعية والعمى عن فهم اخطار المستقبل. ومن هذا التضاد تتولد زاوية اللامعرفة الدالة على حجب الحقيقة وتشفيرها للهروب من عبئها، لتقابلها زاوية اللاجهل المتمثلة في محاولات البحث والتقصي لانتزاع الأسرار، وهو ما اضطلعت به أجهزة الاستخبارات، وكل من زار محمود في مصحته، أو في المغارة الجبلية التي هرب إليها.

وعلى مستوى تنقلات الممثلين في زوايا المربع فقد بدأ محمود السمنودي مساره في زاوية الجهل شابًا غريب الأطوار، ثم اخترق الحجب لينتقل إلى زاوية المعرفة المطلقة. غير أنه، وبمجرد إدراكه لجحيم هذه المعرفة، فرّ هارباً نحو زاوية اللامعرفة؛ متدثراً بالصمت ومستخدماً شفرات رقمية معقدة ليخفي ما يعرفه عن العالم، وتتقاطع مع هذا المسار حركة الزوجة سلوى عمران، التي انطلقت من زاوية الجهل بوصفها زوجة مخدوعة بزوجها الانطوائي الغريب، لتنتقل تدريجياً نحو زاوية اللاجهل إثر اكتشافها دقة تنبؤاته، وذلك في قول الراوي: "يتكلم عن الكتاب السادس ... صفحة ١٦٠ ... السطر ١٩ . الكلمة السابعة"[53]، فلقد تمكنت الزوجة من فهم اللغة الرقمية المشفرة لنبوءات زوجها، وهو انتقال دفعها للفرار رافضةً بلوغ زاوية المعرفة الكلية. أما قوى السلطة والمخابرات والطبيب، فقد تدرجت من الجهل إلى التموضع في زاوية اللاجهل عبر المراقبة المستمرة، وكانت غايتهم في ذلك محاصرة البطل ودفعه قسراً للعودة إلى زاوية المعرفة لاستغلاله بوصفه كنزا استراتيجيا.

ولا يكتمل هذا التفكيك دون المرور بالمربع السيميائي الثاني القائم على ثنائية الحياة/الموت، فهو المربع الوجودي الذي يحدد مصير جسد البطل وروحه. وتتشكل زوايا هذا المربع من الحياة بوصفها استمراراً طبيعياً في مقابل الموت بوصفه فناءً وراحة أبدية من عذاب المعرفة، وينبثق من هذا التقابل زاوية اللاحياة التي تمثل حالة السبات العميق والتعطيل الإرادي للوظائف العقلية، لتقابلها زاوية اللاموت الدالة على البقاء الجبري وتحويل الجسد إلى كيان مرصود. وبتتبع حركة العوامل، يلحظ أن السمنودي الذي كان قابعاً في زاوية الحياة، اندفع بقوة إثر نيله المعرفة نحو زاوية الموت بوصفه خلاصا نهائيا عبر محاولات الانتحار. ولما اكتشف صعوبة تحقيق هذا المسعى، ابتكر مساراً هروبياً نحو زاوية اللاحياة؛ عبر الدخول الإرادي في حالات غيبوبة يعطل فيها التكوين الشبكي في مخه لينفصل عن واقعه الجسدي، ومن تلك الغيبوبات ما ذكره الراوي بقوله: "على الفراش هو راقد في وضع X وقد غطى عينيه ووضع سدادة على أذنيه. كنت أشعر أنه رجل مصلوب، وأنا أعرف أن هناك صليبا على شكل X فعلا. أعتقد أن اسمه صليب القديس أندراوس.. ينتفض... يتقلص... يتيبس.. يتلوى... لابد أنه يعاني عذابًا ما. محمود.. كيف تقدر على دخول هذه الغيبوبة من دون مخدر؟"[54]، فدخول محمود إلى تلك العوالم هو اختيار شخصي للإبحار في الغيبوبة، لكشف المعرفة المخزنة في تلك السجلات. وفي الاتجاه المعاكس برزت عوامل السلطة بوصفها قوة تحاول إبقاءه في زاوية الحياة للاستفادة منه، وبفعل محاولاته الانتحارية المستمرة، تضافرت جهودهم الرقابية لنقله إلى زاوية اللاموت، فهم لم يعودوا يعاملونه كإنسان حي، بل خزينة معلومات مجبرة على البقاء في سجن يُحظر عليه الفناء.

وتأسيساً على ما سبق، يمكن القول إن رحلة بطل الرواية تمثل في جوهرها الدلالي هروباً مستمراً من الزوايا الإيجابية المطلقة للمربعين المعرفة والحياة، التي استحالت

مجلة اجتماعية إنسانية محكمه تعتمد لأغراض الترقيات العلمية تصدر عن كلّية الطف الجامعة /
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد 2636 لسنة 2023

جحيماً لا يُطاق، ومحاولة بائسة للوصول إلى زوايا الفناء الجهل والموت. وبفعل القوى المضادة التي سلبته إرادة الخلاص، انتهى به المطاف محاصراً في الزوايا السلبية اللامعرفة، واللاحياة، ليعيش بوصفه شبحًا صامتًا في غيبوبة مقصودة، يتحدث بشفرات مستغلقة، ليحمي نفسه والعالم من احتراق إيكاروس المأساوي.

الخاتمة:

في ضوء تطبيق أدوات السيميائيات السردية الغريماسية على رواية «مثل إيكاروس» توصل البحث إلى مجموعة من النتائج، يمكن إجمالها فيما يأتي:

1- يمثل محمود السمنودي المحور المركزي في التشكل العاملي للرواية، إذ يتغير موقعه داخل البنية السردية تبعًا لتحول أهدافه وعلاقاته بموضوع القيمة.

2- أظهر التحليل أن مسار السمنودي لا يتحرك في اتجاه واحد، بل يتشكل من برامج متعارضة ومتداخلة، أبرزها برنامج اكتساب المعرفة والقوة، وبرنامج التخلص من عبء المعرفة، إلى جانب برنامج السلطة الساعي إلى استغلال هذه المعرفة.

3- تحولت المعرفة المطلقة من موضوع ترغب الذات بالاتصال به الى موضوع ترغب بالانفصال عنه لانه كان مصدراً للعذاب والدمار؛ فقد حقق السمنودي الاتصال بالسجلات الأكاشية والوصول إلى المعرفة، لكن الجزاء لم يكن إيجابيًا، بل تمثل في المعاناة والعزلة ومحاولات التخلص من الحياة.

4- برزت السلطة وأجهزة الاستخبارات بوصفها ذاتًا ساعية إلى امتلاك السمنودي ومعرفته، فتحول البطل من ذات فاعلة تبحث عن موضوع قيمة إلى موضوع قيمة تسعى قوى أخرى إلى امتلاكه.

5- أن البنية الدلالية للرواية تقوم بصورة أساسية على ثنائيتين متقابلتين هما: المعرفة/الجهل، والحياة/الموت، وما يتولد عنهما من علاقات النفي والتناقض والتضمن. وينتهي مسار البطل إلى مفارقة دلالية تتمثل في تحوّل المعرفة التي سعى إليها بوصفها مصدرًا للقوة إلى مصدر للعذاب، وتحول الحياة إلى عبء، والموت إلى أفق للخلاص، في حين تحاول السلطة إبقاءه حيًا للاستفادة من معرفته. وبذلك تكشف الرواية عن رؤية مأساوية وعبثية للصراع بين الإنسان والمعرفة المطلقة، وبين الذات والقوى الساعية إلى امتلاكها.

الهوامش:

1 – بروب، فلاديمير. مورفولوجيا الحكاية الخرافية، ترجمة: أحمد عبد الرحيم نصر وأخرون، مكتبة النقد الأدبي، الرباط، الطبعة الأولى، 1989م، ص 77.

2 – ينظر: المصدر نفسه: 89.

3 – حمداوي، جميل: النظرية الشكلانية في الأدب والنقد والفن أسسها وتطبيقاتها. دار إفريقيا الشرق. المغرب. 2016م، ص 142. بقاق، عبد السلام: سيميائية الشخصية في رواية الكافية والوشام لمحمد مفلاح. مجلة جسور المعرفة، مج3، ع9، 2023م. ص 153.

4 – معلم، وردة: الشخصية في السيميائيات السردية، الملتقى الوطني الرابع، السيمياء والنص الأدبي، الجزائر، د. ت، ص 315.

5 – ينظر: عداد، راضية (وأخرون): السرد الشعبي وتحولات أسئلة المنهج من مورفولوجيا فلاديمير بروب إلى بنيوية شتراوس، مجلة القارئ الدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، مج6، ع1، 2023م، ص 290.

6 – القيسي، صفاء الدين أحمد فاضل: حكاية الحوريات لفلاديمير بروب بين الإتجاه البنيوي والثنائيات الضدية لكلود ليفي شتراوس، مجلة مدارات في اللغة والأدب، مركز مدارات للدراسات، الجزائر، مج3، ع1، 2019م، ص 258.

مجلة اجتماعية إنسانية محكمه تعتمد لأغراض الترقيات العلمية تصدر عن كلّية الطف الجامعة /
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد 2636 لسنة 2023

7 – ينظر: دقي، محمد: مدرسة باريس السيميائية بين النظرية والتطبيق في الجزائر عبد الحميد بورايو أنموذجا، أطروحة دكتوراه، جامعة ابن خلدون، الجزائر، 2021م، ص 21 وما بعدها.

8 ينظر: مقروس، مسعود: النموذج العاملي من منظور السيميائية السردية، مجلة منتدى الأستاذ، ع18، 2016م، ص 297.

9 – ينظر: غريماس، ألجيرداس جوليان. في المعنى: مقالات سيميائية، ترجمة وتقديم: نجيب غزاوي، مطبعة الحداد، اللاذقية، الطبعة الأولى، د.ت، ص 113.

10 – يُنظر: مارتن، والاس. نظريات السرد الحديثة، ترجمة: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998، ص 122.

11 – ينظر: غريماس، ألجيرداس جوليان. سيميائيات الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ترجمة وتقديم وتعليق: سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2010م، ص 13.

12 – وهو مسار يقترحه غريماس في نموذجه، ويتضمن "ثلاثة مستويات داخل المسار، الذي يحقق الانتقال من المحايثة إلى التجلي، بمعنى الانتقال من البنية الدلالية المنطقية للنموذج التكويني إلى النص السردي المشخص، وكل مستوى من هذه المستويات يشتمل على مكونين أساسين هما: المكون الدلالي والمكون التركيبي (النحوي)". بن عافية، وداد: النظرية السردية الغريماسية بين التنظير والإجراء –دراسة سيميائية–. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية. ع22، 2010م. ص 112.

13 – عزام، محمد: شعرية الخطاب السردي. منشورات إتحاد الكتاب العرب. دمشق. 2005م، ص 17.

14 – هامون، فيليب: سيميولوجية الشخصيات الروائية. ترجمة: سعيد بنكراد. دار الحوار. اللاذقية. الطبعة الأولى. 2013م. ص50.

15 – ينظر: العجيمي، محمد الناصر: في الخطاب السردي نظرية غريماس. الدار العربية للكتاب. تونس. 1991م. ص 40.

16 – ينظر: المصدر نفسه. ص 42.

17 – ينظر: المصدر نفسه. 46.

18 – القاضي، محمد وآخرون: معجم السرديات. الرابطة الدولية للناشرين المستقلين. تونس. الطبعة الأولى. 2010م. ص 388.

19 – حمداوي، جميل: مستجدات النقد الروائي. كتاب إلكتروني. 2011م. ص314.

20 – المصدر نفسه. 315.

21 – بو جلال، الربيع: التحليل السردي عند غريماس. مجلة قراءات. مج11. ع1. 2019.ص 209.

22 – حمداوي، جميل: مستجدات النقد الروائي. ص317.

23 – المصدر نفسه، 218.

24 – ينظر: دي سوسير، فرديناند: دروس في الألسنية العامة، ترجمة: محمد الشاوش وأخرون، الدار العربية للكتاب، د.مك، 1985م، ص166.

25 – غريماس، كورتيس (وأخرون): المنهج السيميائي الخلفيات النظرية وآليات التطبيق، ترجمة: عبد الحميد بورايو، دار التنوير، الجزائر، 2013م، ص 88– 89.

26 – القاضي: محمد، مصدر سابق، ص 388.

27 – ينظر: المشرف، أمل محمد: السيميائية في التراثين العربي والغربي، مجلة اللغة العربية، ع6، مج1، 2023م، ص 661.

28 – ينظر: علي، محمود محمد: المنطق الصوري القديم بين الإصالة والتبعية قضايا وإشكالات، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2023م، ص 60– 61.

29 – ينظر: بن مالك، رشيد: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، منشورات دار الحكمة، المغرب، 2000م، ص 26.

30 – ينظر: ايكو، امبرتو: السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة: أحمد الصمعي، المؤسسة العربية للترجمة، بيروت، 2005م، ص 261.

31 – ينظر: الأحمر، فيصل: معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، 2010م، ص 212.

32 – توفيق، أحمد خالد: مثل إيكاروس (رواية)، دار الشروق، القاهرة، 2015م، ص 24.

33 – توفيق، أحمد خالد، المصدر نفسه، ص 20.

34 – نفسه، ص 25.

35 – نفسه ، ص 21–22.

36 – نفسه، ص 62.

37 – نفسه، ص 32.

38 – ينظر: سلامة، أمين: الأساطير اليونانية والرومانية، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2021م، ص28.

مجلة اجتماعية إنسانية محكمه تعتمد لأغراض الترقيات العلمية تصدر عن كلّية الطف الجامعة /
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد 2636 لسنة 2023

أولاً: المدونة الأساسية (

1. توفيق، أحمد خالد: مثل إيكاروس (رواية)، دار الشروق، القاهرة، 2015م.

ثانياً: الكتب العربية

2. الأحمر، فيصل: معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، 2010م.
3. بن مالك، رشيد: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، منشورات دار الحكمة، المغرب، 2000م.
4. حمداوي، جميل: النظرية الشكلانية في الأدب والنقد والفن أسسها وتطبيقاتها، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 2016م.
5. حمداوي، جميل: مستجدات النقد الروائي، (كتاب إلكتروني)، 2011م.
6. سلامة، أمين: الأساطير اليونانية والرومانية، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2021م.
7. العجيمي، محمد الناصر: في الخطاب السردي نظرية غريماس، الدار العربية للكتاب، تونس، 1991م.
8. عزام، محمد: شعرية الخطاب السردي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005م.
9. علي، محمود محمد: المنطق الصوري القديم بين الأصالة والتبعية قضايا وإشكالات، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2023م.
10. القاضي، محمد وآخرون: معجم السرديات، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، تونس، الطبعة الأولى، 2010م.

ثالثاً: الكتب المترجمة

11. إيكو، أمبرتو: السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة: أحمد الصمعي، المؤسسة العربية للترجمة، بيروت، 2005م.
12. بروب، فلاديمير: مورفولوجيا الحكاية الخرافية، ترجمة: أحمد عبد الرحيم نصر وآخرون، مكتبة النقد الأدبي، الرباط، الطبعة الأولى، 1989م.
13. دي سوسير، فرديناند: دروس في الألسنية العامة، ترجمة: محمد الشاوش وآخرون، الدار العربية للكتاب، د.مك، 1985م.

39 – السجلات الأكاشية أو سجلات الأكاشا: "مصطلح سنسكريتي يعني الأثير أو الفضاء أو المادة العالمية. يعرف أيضا باسم الجوهر أو الصوت المقدس. إنه الفراغ الذي يسمح بالوجود والظهور في الهندوسية هو خامس العناصر الخمسة العظيمة. انها طاقة موحدة توجد بطبيعتها في كل كائن حي على هذا الكوكب ، وكذلك في العناصر الأربعة الأخرى الأرض والماء والهواء والنار التي تشكل العالم الطبيعي كما نعرفه" بالدسيني، أناليا: سجلات الأكاشا، https://www.scribd.com/document

40 – توفيق، مثل إيكاروس، ص 316.

41 – نفسه، ص 140.

42 – نفسه، ص 104.

43 – ينظر: نفسه، ص 286.

44 – ينظر: نفسه، ص170 وما بعدها.

45 – نفسه، 34.

46 – البارانويا: "حالة مرضية ذهانية، يميزها الأوهام والهذاءات والمعتقدات الخاطئة عن العظمة أو الاضطهاد وتكون الشخصية متماسكة رغم وجود المرض ومنتظمة نسبيا مع اتصال لابأس به بالواقع ولا يوجد تغير في السلوك العام ويطلق في بعض الأحيان على هذا المرض اسم الجنون العاقل حيث يبدو المريض منطقيا ومرتبا في كلامه". تعوينات، علي: التكفل النفسي بالاضطرابات النفسية الهذائية المزمنة (البارفرينيا– البارانويا) دراسة تحليلية بين التكفل النفسي والتناول الديني والتعامل الاجتماعي، مجلة البحوث التربوية والتعليمية، مج 5، ع9، 2016م، ص89.

47 – توفيق: مثل إيكاروس، ص 226– 227.

48 – نفسه، ص 331.

49 – نفسه، ص 286.

50 – نفسه، ص 290– 291.

51 – ينظر: سلامة: الأساطير اليونانية والرومانية، ص 28.

52 – ينظر: توفيق: ص 58.

53 – نفسه، ص 104.

54 – نفسه، ص 179.

المصادر والمراجع

14. غريماس، ألجيرداس جوليان: سيميائيات الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ترجمة وتقديم وتعليق: سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2010م.
15. غريماس، ألجيرداس جوليان: في المعنى: مقالات سيميائية، ترجمة وتقديم: نجيب غزاوي، مطبعة الحداد، اللاذقية، الطبعة الأولى، د.ت.
16. غريماس، كورتيس وآخرون: المنهج السيميائي الخلفيات النظرية وآليات التطبيق، ترجمة: عبد الحميد بورايو، دار التنوير، الجزائر، 2013م.
17. مارتن، والاس: نظريات السرد الحديثة، ترجمة: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998م.
18. هامون، فيليب: سيميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة: سعيد بنكراد، دار الحوار، اللاذقية، الطبعة الأولى، 2013م.

رابعاً: الرسائل والأطاريح الجامعية

19. دقي، محمد: مدرسة باريس السيميائية بين النظرية والتطبيق في الجزائر عبد الحميد بورايو أنموذجاً، أطروحة دكتوراه، جامعة ابن خلدون، الجزائر، 2021م.

خامساً: الدوريات والمجلات العلمية

20. بقاق، عبد السلام: سيميائية الشخصية في رواية الكافية والوشام لمحمد مفلاح، مجلة جسور المعرفة، مج3، ع9، 2023م.
21. بن عافية، وداد: النظرية السردية الغريماسية بين التنظير والإجراء –دراسة سيميائية–، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع22، 2010م.
22. بو جلال، الربيع: التحليل السردي عند غريماس، مجلة قراءات، مج11، ع1، 2019م.
23. تعوينات، علي: التكفل النفسي بالاضطرابات النفسية الهذائية المزمنة (البارفرينيا– البارانويا) دراسة تحليلية بين التكفل النفسي والتناول الديني والتعامل الاجتماعي، مجلة البحوث التربوية والتعليمية، مج5، ع9، 2016م.
24. عداد، راضية وآخرون: السرد الشعبي وتحولات أسئلة المنهج من مورفولوجيا فلاديمير بروب إلى بنيوية شتراوس، مجلة القارئ الدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، مج6، ع1، 2023م.
25. القيسي، صفاء الدين أحمد فاضل: حكاية الحوريات لفلاديمير بروب بين الاتجاه البنيوي والثنائيات الضدية لكلود ليفي شتراوس، مجلة مدارات في اللغة والأدب، مركز مدارات للدراسات، الجزائر، مج3، ع1، 2019م.
26. المشرف، أمل محمد: السيميائية في التراثين العربي والغربي، مجلة اللغة العربية، ع6، مج1، 2023م.
27. مقروس، مسعود: النموذج العاملي من منظور السيميائية السردية، مجلة منتدى الأستاذ، ع18، 2016م.

سادساً: الملتقيات والمؤتمرات

28. معلم، وردة: الشخصية في السيميائيات السردية، الملتقى الوطني الرابع، السيمياء والنص الأدبي، الجزائر، د.ت.

سابعاً: المواقع الإلكترونية

29. بالدسيني، أناليا: سجلات الأكاشا، متاح على الرابط: https://www.scribd.com/document